

محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري

قبل أن أتحدث عن هذا الرجل الذي يجب أن يتحدث عنه مدونو تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث - قبل هذا أحب أن أقول في هذا الباب شيئاً عاماً . ذلك بأننا اعتدنا أن نُغفل الكلام في سيرة من عاصرناهم ، ورأيانهم ولا بنائهم ، إلا أن يكون القول من جنس المرأى التي نُصق فيها حللُ الثناء ، ويُقال فيها المديحُ في العادة ، بغير حساب . ولقد يكون هذا الثناء حقاً أو قريباً من الحق ، بحيث لا يؤدي التاريخ في كثير ولا قليل ، ولكنه لا يمكن أن يجلو على الأجيال المستقبلية شيئاً من حقيقة الرجل ، لأن الكاتبين في هذه الحالة لا يُعنون بسط حياة الرجل ، وظواهره خلاله ، والعوامل البارزة في تكوينه ، ومطبوع عاداته ، ولو ما يتصل منها بالأسباب العامة . وذلك من أيسر الأمور لأنهم عرفوه بالمشاهدة ، واستيقنوه باللابسة وطول الاختبار . وهذا ولا شك مما يهيئ للقادمين دراسته وتحليله دراسة إن لم تنته إلى أصدق النتائج ، فهي أدنى إلى الصدق من غيرها على كل حال

وليس يذهب عن القارىء أن إهمال المعاصرين ، على هذا النحو ، لا بد مفضى إلى إحدى حالتين : إما إلى إدراج كثيرين من رجال الآداب والفنون في مطاوي النسيان ، أو التحييف من أقدارهم بقدر كثير أو قليل ؛ وإما إلى تجليلهم ، إذا تراخى الزمان في غير صورهم ، ونحلهم صفاتٍ وخلالاً لم تكن لهم ، بحكم العفنة في رواية الأخبار ، والاتكاء في تحليل نفس الرجل على ماصدر عنه من الآثار . وكثيراً ما يضل الباحث المستنجد في هذا أبعاد الضلال . هذا إلى ما في معاناة مثل تلك البحوث من إضاعة للوقت ، ونفقة من الجهد ، وتجتثم للعناء

وأغلب الظن في هذا الأعفان من المعاصرين لمن عاصروهم من رجال الفنون والآداب يرجع إلى أن الرجل العظيم قل أن يراه معاصروه بالعين التي يراه بها الخالفون ، فهو في الغالب إذا استحق منهم ترديد ذكره والتهافت باسمه ، وتدوين سيرته ، فقل

أن يُعنى أحدٌ بتقصي عاداته ، والتسلل إلى مداخله ، وعرض ما يلابس الأسباب العامة من سائر أموره ، أو لأنهم لا يُعنون بهذا لأنه حاضر لمعاصريه قريب منهم . فهو في حكم البذول الذي ينال منه من شاء أن يتال . ولا شك أن في هذا ضرباً من الغفلة عن أن الحاضر سيفيب على الزمن ، وأن البذول سينقبض ، وأن ما في متناول اليد اليوم ستقطع من دونه غداً علائق الآمال !

ولقد بسكت النقدة عن تقصي ذلك عهداً ، والتلبث بتحليل الرجل ، وردّ العوامل في تكوينه إلى مناجها حتى ينطوى الزمن عليه وعلى أهله ، وعلى أشياعه وخصومه من معاصريه ، حتى يتبها الجوّ للبحث والتحقيق ، لا رغبة ولا رهبة فيه ، فيكون البحث أنور وأصق ، وتخرج النتائج أدق وأوفى

وهذا مذهب في الرأي له أثره وله خطره ، بالرغم من أنه يفوت على المؤرخ المدقق من عناصر الحكم ما قد يسي في بعض الأحيان إلى حكمه ، فإذا هو طلبها تصحيحاً لبعثه ، فلن ينالها إذا نالها صادقة إلا بعد أن يتجشم في سبيلها عرق القرية كما يقولون ! على أنني في هذا لا أذهب إلى القول بنشر العمايب ، واستظهار المكاره ، حتى لا يثير المدون نائرة الأهل والصحاب والأنصار ، وإنما أريد أن يجلو المعاصر ، من غير ذلك ، كل ما له خطر في تكوين الرجل ، فإذا كانت هناك مغامر لا ينبغي إغفالها في تجليله وتحليله ، فليسجلها على أن يكتمها حتى يجليها لوقتها ، أو يجليها من بعده من الأعتاب

وعلى أي حال فإن إغفال هذه الأمور التي نحسبها في غالب الأحيان من التوافه ، كثيراً ما يخل بحق التاريخ ، ويُفضى إلى الجهل بالجزم من حقائق الأشياء . ولست أجد في هذا الباب مثلاً - أيسر ولا أدنى إلى الحسن من أننا ، لولا مهبط البعثة العلمية التي صحبت الحملة الفرنسية في سنة ١٧٩٨ ، ما اهتدينا بسهولة أو ما اهتدينا أبداً إلى أزياء جدودنا وسمتهم من قرن وثلث قرن من الزمان ، فكيف بمن هم أعلى من هذا وأبعد في مذهب التاريخ ؟ ولو قد عُنى أهل كل عصر بأن يحفظوا خلفهم نماذج من نياهم ، وآلاتهم في سائر حوائجهم ، وفعل هؤلاء مثل فعلهم لظلت سلسلة الأزياء واضحة على وجه الزمان ولعل من الخير أن أتبه في هذا المقام إلى أن محاولة كشف

مصباح الشرق

لقد كان هذا « مصباح الشرق » شيئاً طريفاً حقاً ، لقد كان أبلغ من طريف ، فانه لأعجوبة حقاً ، لقد كان هذا « مصباح الشرق » أبلغ من أعجوبة ، إنه لشيء يكاد يتصل بحكم الخوارق في تلك الأيام !

بلاغة بليغة ، ولفظ جزل متخير ، وديباجة مشرقة ، وصيغ موقفة ، ونسج متلاحم ، وأسلوب ليس وراءه في هذا الذي يدعونه السهل المتنع

أدب بارع ، علم وفلسفة ، وبحوث رائدة في سياسة الأمم وفي الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المتكر المنشأ ، ومنها المترجم من مختلف اللغات أرى عبارة عربية بليغة سلسلة واضحة لا تتروح منها أي ربح الاستعجاب . وهل رأيت قط ترجمات السابقين في عصر بني العباس ؟

مذهب طريف في النقد ، نقد الأشخاص ، لاعهد للأدب العربي به من قديم الزمان ؛ بل لعهد لاعهد له به من أول الزمان ؛ لم تكذب تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقة الجرم مرتين أو ثلاثاً حتى أصبحت من بعض سُفل الخاصة في هذه البلاد !

لا يدخل الأصيل في يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زادت أبصار ، وتكرّشت جباه ، وتقلّصت شفاها ، وتداركت أنفاس ، ووجفت قلوب . هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس ؟ . كذلك كان يقرب الخاصة مشرق « المصباح »

ومرعان ما تحطفه اليد الراجفة فتشقه ، ومرعان ما يشيع البصر كأنه في مساحة النقد كلها ، لا يستقر على موضوع خاص ، ولا يتجزئ في حديث معين . بل إنه لينساح على الصفحة كلها انسياحاً ليترك قبل رد الطرف أشك المولى على اسم صاحبه فيمن شك أم أرسله في جملة الطلقاء ؟ ! حتى إذا اطمأن الرجل إلى أنه قد كتبت له السلامة لجمته ، ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يظلمن من نفسه ، ويضط من خلقه ما تقبض ، ويفرخ من روعه ما تحبّس

وإذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المولى ، فاحكم أنت ، عصمتنا الله وإياك ، كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام ؟

الرجل من آثاره المحفوظة لا تجدى كثيراً في الأمانة عن خلاله ومدخل عيشه ، حتى مظاهرها . بل إنها لكثيراً ما تكون من وسائل الضلة في إثبات التاريخ . ولست أسوق لهذا أكثر من مثلي اثنين : ذلك بأنك لو انكأت في طلب خلال الجاحظ على مجرد آثاره لخرج لك منها أنه كان أزهده الناس في المال ، وأنه لو سقط يده لكان أجود به من الريح المرسلّة . فان أحداً لم ينع الشح ولم يذم الأشحاء كما نعى الجاحظ وكما ذم : وإن أحداً لم يؤلف كتاباً في (البخلاء) أبلغ فيهم إجماعاً ، وأشد لهذه الخلة وأصحابها إقذاعاً ، كما صنع الجاحظ . ومع هذا لقد كان هو نفسه من أشد البخلين الذين أوفوا على الغاية من الجشع ، والحمل على الروءة أحياناً في طلب المال

وإنك لو التمت مثل هذا في أبي الفرج لخرج لك من آثاره أنه كان أجمل الناس سمياً ، وأنظفهم بدنًا وثوباً ، وأشدهم أخذاً للنفس بأدق آداب السلوك في طعامه وشرابه ، وغير ذلك من أسبابه . ولكن الواقع أنه كان من أشد الناس شرهاً ، وأقبحهم مؤاكلة ، وأقدرهم خلقاً وثوباً ، حتى ليصح في بعض خلته قول الشاعر :

وسخ الثوب والعمامة والبيرت
ذون الوجوه والقفاه والقلام ؛
ولو لأن معاصري هذا وهذا أثبتوا لكل منهما ما أثبتوا
زلت فيهما الأقلام ، وضلت الأوهام !

بعد هذا آخذ في حديث أستاذي ورئيسي وصديقي العالم الفيلسوف ، الأديب ، الكاتب ، الناقد ، السيد محمد بك المولى على رحمة الله عليه

من أكثر من ثلاثين سنة خلّت ، ولما أزل بعد في أيام الفتوة ، وفي صدر طلب العلم في الأزهر ، صدرت في مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) في أربع صفحات دون صفحات الجرائد التي تصدر الآن مساحة ، ولون ورقها يضرب إلى الحمرة . ويقوم بتحريرها إبراهيم بك المولى وابنه السيد محمد المولى على . وكانت عامة الصحف الأسبوعية قد وصلت في ذلك العهد من المهانة والفسولة والأسفاف وتفاهة الموضوعات إلى أبعد الحدود

الروى بما كان يختاره لها من بدائع المنثور وروائع المنظوم قبل أن تقع العيون من آثارها على كتاب أو ديوان ، وأول من عالج النقد الأدبي لما تنتضج به قرائح الشعراء ، وأعنى به ذلك النقد الرفيع الغالى ، الذى جمع بين أساليب النقد فى أزكى عصور العربية ، وبين طرائقه التى اختطها نقدة الغربيين فى هذا الزمان

وعلى الجملة ، فلقد فتح « الصباح » فى الأدب العربى فتحاً جديداً ، وأمسى « مصباحاً » حقاً يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول أو اجتمعوا لنظم الكلام . وهذا وهذا أصبح « مصباح الشرق » أنخر مدرسة لطلب الأدب الرقع الجزل الطريف فى هذه البلاد . وبما ينبغى أن يُذكر فى هذا المقام أن جماعة الشعراء لقد تماظمهم سطوة « الصباح » فى باب النقد فحسبوا له كل حساب ، وياويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهد كله من التدقيق والتجويد والأجسان ولى لا كتفى اليوم من حديث السيد محمد المولىحى بهذا القدر على نية العودة إليه فى القريب إن شاء الله ما

عبد العزيز البشرى

لأنه مما ينبغى أن يُذكر هنا ، أن « الصباح » لم يكن يعبر قط لأعراض من يتولاهم بالنقد ، ولا يتدسس إلى مكارهم ، أو ينتج عوراتهم ، بل لا يتناول من أمورهم إلا ما كانوا يعرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يدعونهم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم ، فلقد كان « الصباح » أجمل من ذلك موضوعاً وآنف كرامة

وإنه ليستحدث لوناً طريفاً من النقد لا عهد لأدب مصر به ، بل لا عهد به للأمم العربية جماء . وهذا النوع من النقد يقوم فى الجملة ، على التماس الجانب الضعيف فى أثر الرجل ، فيعرضه بالقلم فى صورة (كاريكاتورية) يزيد فى تشويهها ما يتوافق لذمته الدقيق من ألوان التشبيه ، وما يحضره من فنون الاستشهاد والتمثيل ، ولا يرحم بمط الموضوع فى هذه الناحية بالتوايد وطلب المناسبات القرية ، والملابسات الدائية ، تسندها التكنة البارعة ، ويسمفها التندر البديع ، حتى يتمنى الى ما لا ينتهى اليه أحد من الناقدين !

ولقد كان هذا من « مصباح الشرق » الأصل الثابت لهذا اللون من النقد ، أعنى النقد (الكاريكاتورى) فى مصر . كانت صحيفة المولىحيين (أبوزيد) أول ما عُرف ، فيما أعرف أنا ، من التصوير (الكاريكاتورى) فى هذه البلاد . وللى ألع إلى هذه الصحيفة فى بعض هذا الكلام

لم ينته خطب « مصباح الشرق » الى هذا الموضع فحسب ؛ بل لقد كان ، على أنه صحيفة لا تظهر فى جميع الأسبوع إلا مرة واحدة ، روى من جلائل الأخبار فى الأسباب العامة ما لا تبلغه الصحف اليومية ، على شدة ارتصادها لمثل ذلك ، وإذ كاه عيونها الكثيرة فى طلبه وتقصيه ، فكانت أمهات الصحف اليومية لا تتحرج فى كثير من الأحيان من نشر مهام الأخبار تقلاً عن « مصباح الشرق » الأسبوعية مضافة إليها معزوة لها . وفضل « الصباح » فى هذا السبق العجيب إنما كان للجلالة محل إبراهيم بك المولىحى عند أولى الأمر كلهم ، وخفة روحه ، ولطف مدخله ، وسعة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهذا ما لا يخرجون عنه لغيره من رواة الأخبار

ولا أحب أن أجوز هذا الموضع من الكلام قبل أن أقول إن « الصباح » أول من جلا للناس براعة الجاحظ وعبقريته ابن

بجته التأليف والترجمة والنشر

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع الجزء الأول من كتاب :

الاسلام والحضارة العربية

لمؤتاز محمد كرد على
وزير معارف سوريا سابقاً

وهو يبحث فى حضارة المسلمين قديماً وحديثاً وأثرهم فى الحضارة العربية وتأثرهم بها . وقد طبع فى مطبعة دار الكتب ويقع فى نحو ٣٦٠ صفحة من القطع الكبير وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنة بشارع الكرداسى رقم ٩

ومن المكاتب الشهيرة